

المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الأوسط

د. محمد عبد العزيز ربيع

استقبل العالم دعوة الرئيس بوش لعقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط بحرارة، وذلك لأن العالم تعب تماما من عملية السلام التي لم تثمر شيئا ولم يكن من أهدافها كما أثبتت الأحداث فيما بعد تحقيق السلام في تلك المنطقة المضطربة. وفي ضوء التورط الأمريكي في العراق دون العثور على إستراتيجية للخروج، وتصاعد عدد الضحايا البشرية والخسائر المادية، وانتقال عدوى العنف إلى مناطق أخرى، وارتباط كل قضايا الشرق الأوسط بقضية الصراع العربي الإسرائيلي، فإن إعلان بوش عن نيته لعقد مؤتمر دولي لمعالجة القضية الفلسطينية لاقى الترحاب. وحين تبين للسيد بوش وحلفائه من قادة إسرائيل أن العالم ينظر بجدية بالغة للاقتراح الأمريكي، وأنه يتوقع من المؤتمر الكثير، قامت أجهزة الإعلام الصهيونية بقيادة وزيرة الخارجية الإسرائيلية بالتقليل من أهمية المؤتمر ومن حجم التوقعات، واتجهت نحو تحذير الرأي العام العالمي من رفع حجم التوقعات من المؤتمر. أما إدارة الرئيس بوش فقد وجدت أن من واجبه، في ضوء عدم جديتها، التراجع عما أعلنته، حيث بدأ الحديث يركز على عقد لقاء دولي وليس مؤتمر دولي، وكأن العالم لم يتعب من عقد لقاءات تبدأ بوعود وردية وتنتهي بمستنتقات سياسية.

إن حماس العرب للمؤتمر الدولي أو للقاء الدولي المقترح يجب ألا يعمي أعينهم عن هدف بوش الحقيقي وغايات العصابة الحاكمة في إسرائيل. إن هدف بوش هو تحقيق المزيد من الخدمات لإسرائيل من خلال شراء المزيد من الوقت لها لتعميق وجودها على الأرض الفلسطينية، وتفتيت الكيان الفلسطيني المحتمل، وتحويل ما تبقى من تجمعات فلسطينية إلى كتنونات تابعة للتجمعات الاستيطانية اليهودية، تقوم بخدماتها وتعيش على ما تقدمه لها من فتات. أما أهداف الكيان الصهيوني فتتلخص في الحصول على اعترافات عربية رسمية وغير رسمية بالدولة اليهودية والتوجه نحو تطبيع العلاقات معها، بينما تقوم الأخيرة بالعمل المتواصل على سلب السكان العرب إحساسهم بالقدرة على مواجهة العدوان اليهودي والقبول بالهزيمة باعتبارها الأمر الواقع الذي لا يمكن الفرار منه، أو القدر الذي شاءه الله لهذا الشعب المغلوب على أمره.

إن عقد أي مؤتمر عادي، وكل من له خبرة في المؤتمرات العلمية والثقافية والندوات الفكرية، يعرف تماما أن الإعداد لمؤتمر ناجح يحتاج لوقت طويل قد يتجاوز السنتين. وعلى سبيل المثال، شاركت في منتصف الثمانينات في عملية مضمّنة للتوصل إلى صيغة مشتركة مع الإسرائيليين تشكل "إعلان مبادئ" يحكم عملية المفاوضات مع الدولة العبرية. ولقد استمرت عملية التفاوض حول ما سمي في حينه " الحد الأدنى من التوافق " مدة أربعة سنوات متواصلة (1985-1989)، وذلك قبل التوصل إلى صيغة مشتركة، تم على أساسها عقد مؤتمر في مدينة فيينا في النمسا وحضره 16 إسرائيليا، أربعة منهم كانوا أعضاء في الكنيست، و13 فلسطينيا، كان 10 منهم من أعضاء المجلس الوطني وجاءوا بقيادة أحد أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ألا وهو السيد عبد الرزاق يحيى وزير الداخلية الحالي في حكومة السيد فياض. ولهذا ليس بالإمكان الإعداد لمؤتمر دولي للتحقيق للسلام في الشرق الأوسط دون تشكيل فريق عمل أمريكي يتمتع بالخبرة والمعرفة والنزاهة والجدية وإعطائه ما يحتاج إليه من وقت وإمكانيات مادية وبشرية ووثائقية وصلاحيات للإعداد لمؤتمر تتوفر لها احتمالات النجاح.

كانت فكرة الوثيقة التي تم التوصل إليها في الثمانينات قد جاءت من قبل أفضل أصدقاء العرب عامة والفلسطينيين خاصة في الغرب، وهو الدكتور رودولف هلف الألماني الجنسية. وتتلخص الفكرة في التفاوض حول صيغة مشتركة كإعلان مبادئ، ومن ثم عقد مؤتمر ذا صبغة دولية لإعلان الوثيقة ومباركتها. لقد كان رأي الدكتور هلف أن عقد مؤتمر دولي دون حصول توافق مسبق بين الأطراف المعنية مباشرة بالنزاع من شأنه إفشال المؤتمر وتعقيد المفاوضات لاحقاً. وقبل أن يشرح لي الدكتور فكرته حين تعارفنا في عام 1985 قلت له أنني لا أعمل موظفاً لدى المنظمة ولا عضواً في أي تنظيم فلسطيني ولست وسيطاً في أي حوار مع الإسرائيليين أو مع غيرهم، لكن إذا أقنعتني بفكرتك فإنني على استعداد للتعاون معك كشريك.. وبعد أن اتفقنا على هذا المبدأ، شرح لي الصديق فكرته والتي راقت لي، ومن يومها وحتى عقد المؤتمر في عام 1989 عملنا كأصدقاء وشركاء، حيث كان هلف حلقة الوصل مع الإسرائيليين التي أدارها من الجانب الإسرائيلي السيد دافيد شاحام، مدير المركز الدولي للسلام في الشرق الأوسط، وأدرت الجانب الفلسطيني منها، حيث قمت بما لا يقل عن عشرة رحلات لتونس والاجتماع مع السيد عرفات واللجنة المكلفة بالأشراف على الاتصالات السرية مع الجانب الإسرائيلي والتي كانت برئاسة السيد محمود عباس، وكان من أعضائها السيد ياسر عبد ربه والسيد عبد الرزاق اليحيى وغيرهم مما لا داعي لذكر أسمائهم في هذا المجال. إن قضاء حوالي أربعة أعوام في مفاوضات حول إعلان مبادئ هي فترة طويلة كان من الممكن أن تختصر كثيراً لو كانت المفاوضات مباشرة، وكان السيد شاحام رئيساً لوفد إسرائيلي ذا خبرة وصلحيات، وكنت كذلك رئيساً لوفد فلسطيني ذا خبرة وكفاءة وصلحيات. وحين انعقد المؤتمر، كان من بين الحضور خمسة من الشخصيات الأمريكية المعروفة، وخمسة من الشخصيات الروسية المعروفة، وحوالي عشرين شخصية أوروبية مشهورة تمثل سياسيين ومثقفين وناشطين في عمليات السلام وموظفين في المجموعة الأوروبية التي أصبحت اليوم الاتحاد الأوروبي.

إن أمريكا التي لا تسعى لعقد مؤتمر دولي ذا صلحيات، تحاول إلقاء عبء مسؤولية الإعداد للمؤتمر المزمع انعقاده على الفلسطينيين والإسرائيليين، وبالتالي تحميل مسؤولية الفشل في حالة حدوثه لكلا الطرفين، أو بالأحرى للطرف الفلسطيني كما جرت العادة. ولذلك طلبت أمريكا من الفريقين التوصل لاتفاق على صيغة مشتركة لإعلان مسبق، وحضور المؤتمر من أجل الحصول على موافقة الأطراف الدولية المشاركة ومباركتها لما تم التوصل إليه، ولهذا تتكرر لقاءات عباس واولمرت التي لا يمكن أن تنجح إلا بالقدر الذي يسمح به الجانب الفلسطيني. وفي ضوء التجارب السابقة، حين كان الوفد الأمريكي والإسرائيلي يفاوضون وفداً فلسطينياً وصفه أبو عمار بعدم الفاعلية والأهلية، فإن الخوف يكمن اليوم في تقديم المزيد من التنازلات الفلسطينية مقابل وعود تتعلق بأمور الحياة اليومية، وذلك تجنباً لغضب أمريكا وتأخير وصول الأموال والمعونات لقيادة أصبح من الصعب عليها التفرقة بين الشجرة والغابة، بين الحق والحسنة، بين المبدأ والمناورة.

للنشر يوم الثلاثاء 18-9-2007

د. محمد عبد العزيز ربيع professorrabie@yahoo.com

www.yazour.com